صفات الأدب

الفارسي الحديث

للدكتور عبد الوهاب عزام

[لا يصدر هذا العدد من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه حتى يكون مشتركوه قد تلقوا هديتيه السنويتين واحداها كتاب « في نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية »: ومن فصول هذا الكتاب بحث نفيس وسمه الدكتور عبد الوهاب عزام استاذ الادب الفارسي بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول موضوعه « الصلات بين العرب والفرس وآدابها في الجاهلية والاسلام » وقد اخترنا الصفحات التالية من ختام هذا البحث المتع : المحرر]

*

(صفات الادب الفارسي الحديث) — بعد هذا يحق لنا ان نسأل ما صفات هذا الادب الفارسي الاسلامي شعره ونثره ؟ وما علاقته بالادب العربي؟

نشأ الادب الفارسي الحديث في رعاية الأدب العربي وتحت سلطانه وطبع على غراره في أكثر الاساليب والموضوعات :

أخذ الأدب الفارسي عن العربي معظم موضوعات الشعر والنثر وكل صور الشعر والنثر وأساليبها من الوزن والقافية والسجع وانواع البديع الخ . ثم امتاز الادب الفارسي بخصائصه في الاسهاب والقصص وغيرها. وقد اتصل الادبان اتصالاً وثيقاً . وترجم من الفارسية الى العربية شذرات ادبية كما ترجمت الكتب الفهلوية من قبل . نجد في ديوان المعاني لعسكري امثالاً معربة وجملاً من بلاغات العجم » . وفي اليتيمة امثال معربة كذلك . وفي كتب الادب اخبار عن المنشئين بالفتين والمترجمين شعراً فارسياً الى العربية كما في الامثال للميداني

وأما الترجمة من العربية الى الفارسية فكانت أوسع وأنفع . وقد ذكرت بعض المترجمين وما ترجموا من الكتب آنفاً

وكان كثير من المؤلفين والكتّاب والادباء والعلماء يكتبون بالفتين ومعنى هذا ان تكون الفتان اداتين للابانة عن افكار وأخيلة وصور متفقة . وفي هذا من التقريب بين الفتين ما فيه

وكانت اللغة العربية لغة العلم والادب في ايران منذ الفتح الاسلامي فلما ترعرعت الفارسية

وصارت لغة علم وأدب استعان المنشئون في الأدب الفارسي بالألفاظ والعبارات الاعجمية المأنوسة في العربية التي تعوّد الناس التعبير بها زمناً طويلاً

ونفصل هذا القول تفصيلاً قليلاً فيما يلي :

أما الشعر فيشارك الشعر العربي في موضوعاته من رثاء ومدح وغزل وفخر ووصف — في ميل الى المبالغة والاطناب — ويمتاز بأشياء :

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء وأبطالهم مثل فريدون ، ورستم ، وزال ، وجمشيد ، وقد يرى هذا الى الشعر العربي الذي نظم في بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وأمثاله

(٢) ويمتاز الشعر الفارسي بميزتين عظيمتين : الشعر القصصي والشعر الغنائي

فأما الشعر القصصي فقد تولع الفرس به في كل عصر . وقد رأينا أن آدن بن عبد الحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية ، وأن الرودكي اول شعراء الفرس الكبار نظم هذا ايضاً . ومن الأدلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن . ولكن شعراء العربية لم يتناولوها . وأما الفرس فقد نظموها مراراً . نظمها من كبارهم الفردوسي وجامي . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التي قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بعرضها في الملاء نظمها العنصري شاعر محمود الغزنوي ، ثم الفصيحي في رواية كيكاوس الزياري ، ونظمها اربعة شعراء آخرون . وقصة ليلى والمجنون نظمها كذلك غير واحد من شعرائهم

وحسبنا شاهنامة الفردوسي التي حاكاها شعراء كثيرون فنظمت شاهنامات أخرى لم تنل ما نالته من القبول والصيت . ومن القصص المنظومة رواية خسرو وشكر ، ورسالة الطير لفريد الدين العطار وسلامان وأبسال لمولانا جامي ، وغيرها مما لا يتسع المقام لتعديده

وأما الشعر الغنائي فقد بدأه أبو سعيد بن أبي الخير من علماء مرو في خراسان . وأبو عبد الله الانصاري من هراة . فنظم فيه قصداً ورباعيات ، ولكنه لم يكثر فيه التأليف الا بعد نصف قرن اذ نبغ طليعة فرسانه سنائي الغزنوي ثم فريد الدين العطار ثم فخر الدين العراقي ثم جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي يسمى القرآن في اللغة الفارسية . ويقال ان [illegible] ولكن [illegible] وكان بعد غارات التتار يجمع شمل [illegible] جامي الذي يعد آخر شعراء الفرس العظام

والحق ان اللغة الفارسية تفوق سائر لغات الأمم الشرقية بما تمتاز به من الشعر الغنائي الفلسفي الذي يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الآراء وينفذ الى بواطن الأشياء لتصف النفس الانسانية في اسمى مقاصدها ، وترى الحقائق الأزلية في اجلى مظاهرها

وأما الفاظ الشعر ففيها كثير من الألفاظ العربية وتعتبر طابع خاص في تركيبه . ولكن أثر

العربية في الشعر أقل منه في النثر . وأما قوافيه وأوزانه فلم يمكن تفصيلها في هذا المقال . وحسبنا ان نقول أن الفرس يكثرون من الشعر المزدوج الذي يسمى بالفارسية بحر شعر المتنبي كما . وأكثروا كذلك من الدوبيت او الرباعي . وعندهم ما يسمونه ترکیب بند او ترجیع بند وهو قريب من الموشحات العربية — وعندهم الشعر المردف وهو الذي تتكرر في آخر ابياته كلمة واحدة ويعتبر الروي والقافية ما قبل هذه الكلمة . وجملة القول انهم لم يسهلوا القوافي العربية وان اخترعوا ضروباً فيها

وأما الوزن فجدير بالتدقيق جداً . فان الفرس حاكوا العرب في أوزانهم وان الامر ليستهم سرطان ما بدؤوا أشهر الاوزان العربية . فالطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل وهي أشهر الاوزان في الشعر العربي . لم ينظم فيها الفرس الا جماعة من المتقدمين ثم ترددت اظهار براعتهم كما يقول شمس قيس . ونظموا في الرمل والرجز والمخلع والمشاكل والمجتث والمقتضب (وهو وزن المتطامسة) وأولعوا بالهزج ولعاً شديداً حتى حملوه اصلاً فرعوا منه الرباعي وخرجوا به عن اصله العربي

ويلاحظ انهم لم يقفوا بالبحور عند المقادير العربية . فالرمل قد يأتي ثمناً والرجز كذلك وما جاءا كذلك في شعر العرب قط والهزج — مثلاً — الذي هو سداسي الاصل عند العرب ومجزوء وجوباً يتم منه الفرس ثمناً . ثم تصرف الفرس في الزحاف والعلل تصرفاً كثيراً جداً واشتقوا من الدوائر العربية بحوراً أخرى قريبة من البحور الاصلية من القريب والمشاكل والقريب

وقد اراد بعض المستشرقين ان يعلل الخلاف بين الاوزان العربية والفارسية بالفرق بين طبائع الامتين من اختلاف . ويقول شمس قيس ان سبب ثقل الطويل والمديد والبسيط ان أجزاءها غير متناسبة في حركاتها . سكناتها ويحتج في بيان ذلك . ولا يمكن القول في هذه المسألة الا بعد بحث مفصل في أوزان الشعر العربي وعلاقة الفارسية بالعربية في أوزان الشعر العربية في الشعر الفارسي وتبيين ما بين هذه البحور وبعضها من صلة

وينبغي ان يذكر هنا ان وزن الرباعي نقل الى العربية وسمي المضارع وهو مجزوء هزج ثمني ان يلي وزناً قريباً استعملوه العربية

وأما النثر الفارسي فأثر العربية فيه أبين . الالفاظ العربية فيه كثيرة والتركيب العربي . ويمكن الاستدلال الفرق بين النثر الادبي — فن الرسائل والمقامات — وبين النثر الكتب . فأما الاول فقريب من الشعر . وأما الكتب في النثر فكلها في الكثير من العربية يغني ان يفرق فيها بين كتب التاريخ التي فصل يستعمل فيها الكلام المنثور والمؤلفات العلمية مثل كتب الفقه والتوحيد والبلاغة والطب وهذا جزء الاخير يكاد

يكتب بألفاظ عربية ، وتستعار فيه كل الاصطلاحات العربية ، فاصطلاحات البلاغة وضروب البديع واصطلاحات العروض أخذت برمتها . وما زادوه فيها اشتقوه من العربية ايضاً . ثم المؤلفات كلها عليها وأدبياتخللها كثير من المقتبسات العربية ،ففي كتب الدين الآيات والاحاديث، وفي كتب الادب والتاريخ كثير من الابيات والامثال والمأثورات . وقد نجد من ذلك أسطراً متوالية

وخير ما يفعل لمقارنة النثر العربي والنثر الفارسي ان تنظر الى كتاب عربي وترجمته ، لترى كيف توافق الترجمة الاصل وكيف تخالفها مراعاة لاسلوب اللغة وذوق اهلها . فاذا قارن الباحث كتاب كليلة ودمنة العربي بالترجمة الفارسية التي كتبها نصر بن عبد الحميد والترجمة الاخرى التي كتبها الكاشفي من بعد وسماها أنوار سهيلي عرف كيف تشترك اللغتان في كثير من الالفاظ والعبارات وضروب البديع وكيف تختلفان في الاطناب والتفصيل والمبالغة

مقام العربية في ايران من الفارسية

قد عرفنا حال اللغة الفارسية في ايران اجمالاً ، كيف بدأت وكيف تطوّرت وكيف شاركت في فنون كثيرة . وقد يتردد في نفس القارئ هذا السؤال : ما ذا أصاب اللغة العربية في هذه البلاد بعد ان صار لها لغة أدبية خاصة ؟ هل استبدت اللغة الفارسية بالآداب والعلوم ولم يبق للعربية فيها مجال ؟

قد تغلبت الغير باللغتين ولكن يمكن ان يقال ان العربية احتفظت بالسيادة في الاطوار كلها فيما عدا الشعر . فأما بيان هذا ففي هذه الكلمة الموجزة :

لا ريب ان المؤلفات العربية التي ألفت في بلاد الفرس ما بين أول القرن الرابع وغارات التتار أكثر جداً من نظائرها الفارسية ، ولكن ينبغي أن نفرق بين النثر والشعر وغيره فان الامر فيها لا يجري على سنن واحد

فأما العلماء المؤلفون فلا حرج على باحث ان يقول انهم كلهم كانوا يعرفون اللغتين ، وقد كانت بعضهم فيها ولكن المؤلفين بالعربية أشهر ذكراً وأعظم أثراً . وحسبنا أن نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي والزوزني والتبريزي والنسفي والبيضاوي والطوسي

وأحسن مقياس في هذا ان نعمد الى جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى مؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم أم الفارسية . ولا أحسب الامر يحتاج الى عناء . فيكفينا أن نذكر الغزالي الذي نعرف مؤلفاته العربية وليس له في الفارسية الا رسالتان : كيمياء السعادة ونصيحة الملوك .

وقد صرّح في الاولى انهُ ألفها بالفارسية ليُفهم العامة — وفخر الدين الرازي لهُ رسالة ثلاثة وثلاثين مؤلفاً يعرب منها في الفارسية واحد فقط هو اختيارات علائي . وناصر الدين الطوسي على تأخر زمانه لهُ نحو خمسين مؤلفاً قليل منها الفارسي ، والبيضاوي ألف تفسيره المشهور باسم منهج الفارسية الا كتاباً صغيراً أسماه نظام التواريخ

وأما الشعر وما يتصل به فلا ريب ان النبوغ كان لشعراء الفارسية ، فبين قصور شعراء العربية ببلاد الفرس كثير أمثال الفردوسي او الانوري أو العنصري ، ولكن أكثر العلماء الذين اتخذوا العربية لغة علم كانوا ينظمون شعراً عربياً . وكثير من شعرائنا الذين نظموا شعراً عربياً كذلك . وحسبنا ان نعرف ان الثعالبي وهو من رجال القرن الرابع ذكر في الجزء الثالث والجزء الرابع من اليتيمة واحداً وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربي في أرجاء بلاد الفرس . وهم أكثر من كل شعراء الفرس الذين ذكرهم هو في وقته في القرن السابع ولكنهم لا يبلغون درجتهم في الشعر . وقليل منهم يعدّ شاعراً عظيماً في العربية

ومن الشعراء الذين نظموا بالقنين بديع الزمان الهمذاني وابو الفتح البستي وقد ضاع ديوانه الفارسي . والبديع البلخي الذي مدح أحد الامراء بشعر ملمع . وعطاء بن يعقوب الكاتب وكان لهُ ديوانان عربي وفارسي ، والباخرزي ، وابن سينا والشيخ السعدي ومن الكتّاب رشيد الدين الوطواط صاحب حديقة الشعر ولهُ رسائل عربية نشرت احداها في رسائل البلغاء

ولم يكن حال القنين سواء في العصور كلها فقد كانت الفارسية منذ ظهرت في صدور يقيا كانت العربية في هبوط — وهذا الهبوط كان أبين في الشعر منهُ في النثر ، فالرازي مؤلف راحة الصدور ينقل أبياتاً عربية بليغة لاحد وزراء السلاجقة ثم يأسف على ذلك الزمن ويقول : ان وزراء زمنه لا يفهمون مثل هذا — وصاحب المعجم من رجال القرن السابع يقول ان شعراء زمانه يعرفون القنين ولكنهُ لما ألّف كتابه في العروض بالعربية نعم عليه أنه فارسي حتى قسم الكتاب قسمين المعجم والمعرب

وعوفي يقول : فان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل شاعر فارسي يعرف العربية ومع هذا كلهُ نرى ان اللغة الفارسية نفسها لم تكن قد ضبطت قواعدها واحكمت كما كانت العربية حتى نجد شمس الدين الرازي في القرن السابع يشكو من هذا ويشرح القواعد شرح المستنبط الذي لم يُسبق

والخلاصة ان العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية حتى عارضت الفارسية عصفت بالحضارة الاسلامية واصبحت العلوم والآداب بشربات لم تفق منها حتى اليوم . ويضيق المجال عن الكلام في طور القنين بعد سقوط بغداد . وعسى ان تتاح له فرصة اخرى ان شاء الله